

(١)

من ماجدولين الى سوزان

سواء لديّ أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خطو من كل شيء
يملك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكنني أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لك إن أشجار
الريبع قد بدأت تبسّم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إليّ
في غرفتي هذه الساعة التي أكتب إليك فيها شلى أول زهرة من
زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكنني أن أخبرك أيضاً وإن كنت لا أعرف لثل هذه
الأخبار معنى - أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من
منزلنا قد سكنها اليوم في اسمه «استيفن» غريب الأطوار في
وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر إليه
أنه يائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة
وييده كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره
بأول سطر يمر به ثم لا يتقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحديقة مطرق
إلى الأرض من حيث يظن الرائي أنه يقرأ في كتاب ؛ فإذا رآني
مارة أمامه رفع رأسه إليّ وحياني تحية وجيزة ، ثم انتقل من مكانه
وانساب بين الأشجار ، أو صعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بيني
وبيته معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شيء من ذلك فيما بعد ،

لأنني لا أتمس السبيل إلى التعرف به ولا أحسب أنه يلتمسه ،
فإن كنت لا بد سائلة عما يتساءل عنه النساء في مثل هذا الموقف
فأقول لك إن الفتى ليس يجميل ولا جذاب ، بل إن في منظره
من الحشونة والجمود ما ينفر نظر الناظر إليه ، وأحسن ما فيه أنني
سمعت ليلة وكانت ناقذة غرقتي مفتوحة يغني غناء شجياً مؤثراً
وإن كان لا يجري فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يطرب البؤساء
والمحزونين ولا يعجب الموسيقين المتقنين ، ولقد تمكن أبي من
مجالسته منبهة فحدثني عنه أنه من المتعلمين الأذكياء ، وبعد :
فأحسب أنني أملكك يا سوزان بحديث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن
لي ولا لك معه فلا تعني عليّ ، فهذا كل ما تستطيع أن تملأ به
صفحات كتابها فتاة تعيش في قرينها الصغيرة عيشاً مشابه الصور
والألوان : لا فرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومساءه ، لا
تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

(٢)

من ماجلولين الى سوزان

الجو راتق ، والسماء مصحبة ، وقرص الشمس يلتهب التهاباً .
والأرض تهتز فتنبت نباتاً حسناً ، والأرض تنتفض عن أوراقها
اللامعة الخضراء ، والهواء الباتر يترقرق فينبعث إلى الأجسام
فيترك فيها أثراً هادئاً لذيلاً ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا
أثر له في نفسي ، فلنني أشعر أن الحياة مظلمة قائمة ، وأن هذا
القضاء على سعته وانفراج ما بين أطرافه ضيق في أعيني من كثرة
الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شيء غريب لا أعرفه

ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأثر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أُنشدُها ، فإذا نال مني التعب أويت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلها قليلاً ، فلا يكاد يملق نظري بأول زهرة يروقني منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأنني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، نأبتغل فيه كما يتغلغل الطائر الملقق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استمقت وجدتي لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالماً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراباً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب من القلوب وتمتلئ الحداق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أحلو فيها بنفسي فأناجيتها بهمومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صلري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الموموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مآتاه ؛ حتى يخيل إليّ أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشند خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب الآمهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنني لا أعرف لي

داء فأعالجه ، ولا يوم شفاه فأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لديّ ، وأبي لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتني ، ولا هناء غير هنائني ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال في العالم سوى أن يراني باسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تنديل أوراقها وتموت زهراتها في سبيل قضاء مراقبتي وحاجاتي ، فأنا إن شكوت فلنما أشكو بطراً وأشراً وكفراً بأنعم الله التي يسبقها عليّ ويسلبها إليّ ، ففقرانك اللهم ورحمتك ، فلاني ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أباديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيتها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهصر أعصابنا ، ونجني ثمارها . ونطير في سماها بأجنحة من الآمال والأحلام ، فأنلينا وأبكي عليها ، وأحن إليها حين الليل إلى مطلع الفجر والجلدب إلى ديمة القطر .

(٣)

من إدوار إلى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بي ولا تعتمد عليّ وأنك لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم والتبريم بهم من أفراد أسرته ، فقد كتمت عني ما كنت أرجو أن تفضي به إليّ من تبرم ذات فضلك فيما اعترمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكنني لم أوثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أبدأ من أن أكذب إليك .

إننا نبتنا معاً يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة
 يغلونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شبيتنا فاختلقتنا
 كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبتهما ثمرة وشكلا ، ولذلك
 أنت تفر مني الفرار كله وتقبض عني ، ولا تراني أسلك فجاً
 من فجاج الأرض إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد
 إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التي أسعد
 بها ، وهتأ بعيش غير الذي أهنا به ، وتطرب لنخمة غير التي تسمعها
 مني ، ولا تستطيع أن ترى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن
 ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهام .

إنك لا تبغضني يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن تراني ، لأنك
 تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ،
 فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفجئك في تصوراتك وأحلامك ،
 ويكدر عليك لذائذك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي
 المظلم ، وتقعن بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح
 خيالهم السوداء .

كن كما تشاء وعش كما تريد ، فستقضي أيام شبابك وستقضي
 بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهناك تنزل من سمانك التي تطير
 فيها ألى أرضي التي أسكنها ، فتعارف بعد التناكر وتتواصل
 بعد التقاطع وتلتقي كما كنا .

لا بد أن نفرق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد
 اليوم لأننا ستفق ، فلا بأس أن تكذب إليّ وأكتب إليك ، وأن
 نتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ،
 ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها وتبرز
 من مكنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأضلتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بينتك التي انتويتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدوها لك ، وعندني أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنتك مخطيء فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يشع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أخوك يجبك كثيراً ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

(٤)

خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الفجر ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، وينلوني يوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ، ما كنت أحسبه أماني وآمالاً ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيلالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يسعدون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما
أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا
يمجز عن أن يتمهدا بلطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتتلأأ
أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والحوافي لا
يرضى أن يبعضني ويتركني في مكاني كسيراً لا أنهض ولا أطيء .
وإن الذي سلطني كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور
وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن
يقسو عليّ القسوة كلها فيسليبي تلك الثمالة الباقية التي هي ملاك
عيشي ، وقوام حياتي ...

على أنني ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلاً . فكل ما
أطمع فيه من جمال هذا العالم وزخرفه ؛ رفيق أنس بقربه وجواره ،
وأجد لذة العيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال
كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع
النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان
يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعرُ بالمرأة
التي خلقت له فيقر قراره ، ويلقي عصاه .

ويعد : لأي مقدور من المقدورات نصيبك به قوة الله وحكمته ،
وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يبدع في تصوراته
وتخيلاته الذهنية فوق ما تبدع يد القدرة في مصنوعات وآثارها ،
وهل الصور والتخيالات التي تمتلئ بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا
رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبلائه ، ولو أن سامعاً سمع
وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ،
أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجيال ، ثم

رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال الصورات وحقائق الموجودات فوق هواتف الخيالات ، لذلك أعتقد أنني ما تخليت هذه السعادة التي أقدرها لنفسي إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا رب فيها .

إن اليوم الذي أشعر فيه بحية آمالي ، واقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يجيها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

(٥)

الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى «مولر» والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم ير بد من أن يجيبه فحياه بتحية حبي بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمر أدراجه فراه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شذقيه فاستحيا أن يمضي لسيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرايه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ؛ ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تنمشي في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة ، وما

أقل مؤونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت
لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل
يوم تكبير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ الأتار عاري الرأس
حافي القدم ، أرح وألب وأتأثر طرائد الصيد في مسارحها
وملاعبها ؛ فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وفوفي
في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها
البيضاء كساء أتقي به هذه الرعدة ، وأمتع نظري بروية الفتيات
الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة
الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين
لم تنزل اليوم كمادتها فلعلها بخير ، قال : نعم ، هي بخير ، ولكن
ضيقاً من أقرباتنا نزل بنا أمس فلم أر بدأ من أن أكل إليها أمره
والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين
ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها
من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها .
ثم ذهبنا في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما وكذلك
إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقبلان يحدبها
فتهلل ، وتحدثه فيتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ،
لا قرييين يتسامران ، فخيّل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده
غير مستحسن ولا مستعذب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهى بالنظر إلى بعض الزهرات
وود لو وجد السبيل إلى الحرب منهما لولا أنهما اعترضتا طريقه
فسلما عليه فرد رداً فاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خيمته من الخمائل ، فما خطا
فيها بعض خطوات حتى سمع القتي يغرب في الضحك ، فما